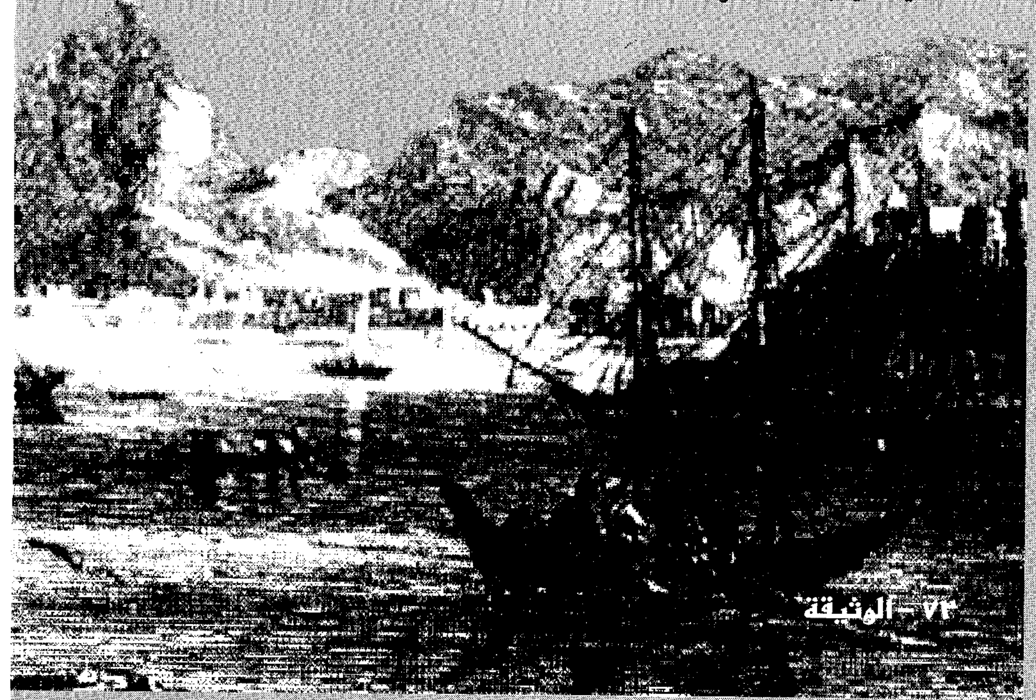
دولة مسقط فى الخليج



سيد سعيد بن سلطان البوسعيد

بقلم :

كالفيـــن أيتـش آلـين



٧٣ - الوثيقة

وشرق أفريقيا ١٧٨٥ - ١٨٢٩م *

يعتقد بصفة تقليدية عبر القرنين الماضيين عن تاريخ عمان بأن البلاد تم توحيدها في عهد آل بوسعيد، الذي كان مقره في الرستاق أولاً ثم نقل إلى مسقط لاحقاً، عندما تولى حمد بن سعيد الحكم في ١٧٨٥م[1] . وطبقاً لما ورد في لوريمر فإن نقل العاصمة إلى مسقط، وهي ميناء رئيسي للبلاد، كان له أثر تمزيقي للسياسة العمانية[2] . في حين يعتقد ج.ب. كيلي بأن هذا التغيير يمثل تحولاً في قاعدة السلطة من البر إلى البحر[3] . ويعارض هذا البحث هذين التفسيرين وكذلك يعارض الافتراض بأن مسقط كانت عاصمة لعمان الموحدة .

---

* (المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط - ١٤ - ١٩٨٢م)



لقد أنشأ حمد بن سعيد في عام ١٧٨٥م دولة "مستقلة" في مسقط وساعدته هذه الخطوة في الاستفادة بالتجارة مع المنطقة الداخلية لعمان التي كانت تعتمد على مسقط لاستيراد المواد الغذائية والمنسوجات والمعادن والمواد الخام وفي نفس الوقت انتهت معارضة القبائل له وكانت أكبر عائق واجهه كل حاكم أراد أن يسيطر على المنطقة الداخلية والمركز التجاري معاً[4] . وبعد أن استقر في مسقط تبنى كل من حمد وخلفاؤه سياسة عسكرية وسياسية عدوانية في الخليج العربي (١٧٨٥ - ١٨٢٠) وفي شرق أفريقيا (١٨٢٠ - ١٨٢٩م) بقصد إنشاء إمبراطورية تجارية عاصمتها مسقط وكان المبدأ الأساسي لهذه السياسة عدم تدخلها في شئون عمان التي كانت مقسمة بين قادة قبائل شتى .

وكان حمد بن سعيد ابناً لثاني إمام بوسعيدي هو سعيد بن أحمد ولم يكن حمد، مثل معظم الآخرين، مطمئناً لحكم أبيه[5] فتمرد في عام ١٧٨٥ وفرض سيطرته على مسقط. ولم يتورط حمد في فترة حكمه (من ١٧٨٥ إلى ١٧٩٢م) في السياسات العمانية حيث بقي والده في الحكم شرعياً[6] . بل ركز[7] اهتمامه على الوضع السياسي والتجاري في الخليج العربي الذي كان في حالة اضطراب عقب وفاة كريم خان الزندي في ١٧٧٩م[8] وكانت هذه السياسة عبارة عن اتخاذ إجراءات عديدة لجلب التجارة لمسقط وجعلها مركزاً تجارياً لمنطقة الخليج العربي ونقطة لمراقبة مرور السلع التجارية فيها .

تركزت المبادرة التجارية على تنظيم الرسوم الجمركية وتشجيع التجار الأجانب وقرّر حمد رسوماً ثابتة بواقع ٦,٥٪ على قيمة الفاتورة[9] . مما شجّع التجار الهنود وخاصة الهندوس على المجيء لمسقط لأنهم كانوا يدفعون رسوماً بواقع ٩٪ سابقاً[10] . وكان ذلك رسماً تمييزياً وأقام حمد روابط تجارية مع كل من السند وأفغانستان عن طريق وادي الأندوس والبنجاب وفي هذه المهمة تلقى دعماً من التطور الاقتصادي في السند حيث برزت مجموعة من التجار

المسلمين بمساعدة من حكومة إسلامية حديثة التشكيل فيها وحاولت هذه المجموعة انتزاع السيطرة على الأعمال التجارية من أيدي الهندوس الذين تمتعوا بجذور عميقة في هذا الحقل[11].

ولم تكف هذه السياسة الاقتصادية فقط لفرض سيطرة مسقط على تجارة الخليج بسبب وجود المنافسين الآخرين ومنهم القواسم من رأس الخيمة والعتوب للبحرين الذين بحثوا عن دور لهم في تجارة الخليج[12] قد حاول حمد فرض مراقبته على هؤلاء المنافسين عن طريق استيلائه على الداخل إلى كل من الهند وشرق أفريقيا نظراً لحاجتهم إلى البضائع من تلك البلدان وانطلاقاً من هذا الاعتبار احتل حمد كلاً من ميناء خورفكان في خليج عمان وجزيرة الحمراء في جنوب غرب رأس الخيمة في ١٧٨٧م[13] وزوّد أسطوله البحري بإضافة فرقاطة[14] أن هذين الإجراءين مما أكدا لمسقط السيطرة على مضيق هرمز.

وكان لإجراءات حمد في تبسيط الرسوم الجمركية وتوسعة الاتصالات التجارية ومراقبة المدخل إلى الخليج تأثير جيد على تجارة مسقط. وأصبحت المدينة من أنشط الموانئ في منطقة الخليج العربي وحلت محل بندر عباس كمركز تجاري هام[15]. ومن سوء الحظ أنه عندما بدأت هذه السياسة تأتي بنتائج مثمرة توفي حمد فجأةً في عام ١٧٩٢. وواجهت مسقط الفوضى بسبب الصراعات التي نشبت بين أفراد أسرة البوسعيد لانتزاع الحكم. وأخيراً فاز سلطان بن أحمد، عم حمد وخصمه من زمن طويل[16] ولقد ضمنت اتفاقية البركة[17] في ١٧٩٣ استقلال مسقط.

لم يتعاطف التاريخ مع سلطان بن أحمد. ففرانسيس واردن وهو شبه معاصر للأحداث وكان موظفاً في حكومة بومباي جاء بالملاحظات التالية عن أنشطة سلطان في الخليج: "أن روح المبادرة التي اتسمت بها سيرة السيد سلطان، إمام مسقط، الذي انتزع الحكم من أخيه الأكبر، قد أدت إلى نزاعات خطيرة مع العرب وعدة حروب معهم... والمشاكل التي برزت في هذه الفترة ودامت حتى وفاة سيد سلطان في ١٨٠٤م تنسب إلى تصرفات هذا الحاكم في محاولاته تحقيق طموحاته الجشعة"[18]. يقول ج.ب. كيلي بأن سياسة حكومة الهند في ترك حماية مرور السفن في الخليج في أيدي سيد

سلطان لم تكن صائبةً كما ثبت من تصرفاته اللاحقة"[19] . تعكس هذه الآراء تعصباً إنجليزياً إمبراطورياً وسوء فهم لسيرة سلطان ومصالحه الحقيقية. فقد أراد سلطان بن أحمد مثل سلفه أن يؤسس إمبراطوريةً تجاريةً بقاعدتها في مسقط .

تعرضت مسقط لعقبة أثناء الثغرة بين وفاة حمد وإبرام اتفاقية البركة . احتل القواسم كلا من خورفكان وجزيرة الحمراء وفقدت مسقط سيطرتها على المدخل إلى الخليج . انتهز كل من القواسم والعتوب الفرصة لإنعاش مصالحهم الاقتصادية والتجارية دون خطر تدخل من مسقط . وبعد أن استقر سلطان في مسقط حوّل أنظاره نحو الخليج وكان يملك جوادر على ساحل مكران فعلاً حسب اتفاقية أبرمها مع حاكم ساحل مكران في ١٧٨٤م واكتسب سلطان ميناء شابار المجاور وأبرم اتفاقاً مع الحكومة الإيرانية مما أعطى له السيطرة على كل من بندر عباس وتوابعها - القشم وميناب وهنجام وهرمز[20] .

وبعد أن سيطر على المدخل إلى الخليج، وجّه سيد سلطان أنظاره إلى القواسم والعتوب . حاول سلطان أولاً فرض ترخيص على الملاحة في الخليج بأكملها[21] ولكن أسطوله لم يكن قوياً لينفذ هذا القرار . فحاول الاستعانة بحلفاءه لتنفيذ خطته بمن فيهم ناصر السويدي ورحمة بن جابر وكلاهما من أشهر "القراصنة"[22] . احتفظ سلطان دائماً بمكانته الرسمية في تعامله مع القراصنة . ويذكر على سبيل المثال مسألة ناصر السويدي الذي أغضب زعيم القواسم فطرده من رأس الخيمة لكنه نال حماية سلطان وسُمح له أن يستوطن هرمز وفيما بعد حصل على تشجيع سلطان للقيام بأعمال القرصنة ضد سفن القواسم والعتوب . هاجم ناصر بعض السفن الهندية أيضاً . وفي بداية القرن التاسع عشر نجح هذا التحالف إلى درجة أن سلطان اقترح لشركة الهند الشرقية بأنه ينصح لها أن تسلم بضائعها له لنقلها بأمان في مياه الخليج ولتسليمها إلى الجهة المختصة . وليس من الغريب أن البضائع التي لم تسلّم إلى سلطان سقطت في أيدي القراصنة وتم بيعها في أسواق مسقط[23] .

وعلى الرغم من محاولة سلطان إلا أن عتوب البحرين ازدهروا خاصةً لأن

الجزيرة كانت مركزاً لتجارة اللؤلؤ . وبسبب فشل الإجراءات غير مباشرة صمم سلطان على غزو الجزيرة وفي عام ١٧٩٩م احتجز ثلاث سفن للعتوب بتهمة عدم حملها التصاريح الصادرة منه[24] واستعد لغزو البحرين . استعد العتوب أيضاً لمواجهة الموقف ووجد العتوب حليفاً لهم في حاكم بوشهر . ثم تفاوض سلطان مع العتوب وأبرم اتفاقاً بينهما والتزم العتوب طبقاً للاتفاق بدفع رسوم المرور لمسقط مستقبلاً على شرط أن يعفى لهم جزءاً من المتبقيات من الرسوم الماضية[25] . مقابل انسحاب قوات مسقط .

هناك ضوء جانبي لغزو مسقط للبحرين وهو محاولة سيد سلطان فرض سيطرته على جزيرة خرج[26] . وكان المفروض بصفة عامة أن المبرر لهذا الهجوم هو معاقبة بوشهر لمساعدتها للعتوب ولكن في الحقيقة إذا نظرنا لهذه المحاولة في ضوء رغبة سيد سلطان في فرض سيطرته على تجارة الخليج فمن الواضح أن احتلال جزيرة خرج كان يعطي لسيد سلطان فرصة "ذهبية" لتحويل التجارة من بوشهر إلى خرج حتى تصبح خرج قاعدة لمراقبة تجارة الخليج العربي عن طريق مراقبة الأسواق في شمال الخليج . ولكن لسوء الحظ فشلت الخطة .

وكان على سلطان أن يهتم بالقوى الأوروبية أيضاً بالإضافة إلى جيرانه العرب في الخليج خاصة بالفرنسيين والبريطانيين . فأقام سلطان علاقات ودية مع فرنسا في موريشيوس ولكن بريطانيا كانت قوة ناشئة في المحيط الهندي والخليج وسبَّبَ النفوذ الفرنسي في مسقط قلقاً لدى سلطات بريطانيا وبدأ الإنجليز تحركات دبلوماسية في ١٧٩٨م بهذا الشأن مما أدى إلى عقد اتفاق بين الإنجليز ومسقط وأعلن سلطان في هذا الاتفاق عن صداقته للإنجليز ووعد بعدم السماح لفرنسا بأن تقيم مكتباً تجارياً في مسقط (وكان ذلك هو ما كان عليه سلطان سابقاً على كل حال) وسمح للإنجليز بفتح مكتب تجاري في بندر عباس[27] ومقابل ذلك سمح الإنجليز للسفن المسقطية أن تنقل ٥٠٠٠ مُنْد (maund) من الملح إلى كلكتا في حين سمح للسفن العربية الأخرى بـ ١٠٠٠ مُنْد فقط . وكان امتياز نقل الملح هو العنصر الأساسي في هذا الاتفاق .

وهكذا أصبحت المناطق الإيرانية التي اكتسبها سلطان لأسباب استراتيجية أولاً مناطق رابحة اقتصادياً . وفي عام ١٨٠٢م بلغ الدخل من بندر عباس ١٠٠,٠٠٠ دولار ماريا تريزا (وهو يساوي ثلث دخل سلطان السنوي) ومعظمه من معدن الملح في هرمز[28] .

نجحت سياسة سلطان الخليجية في عام ١٨٠٠م نجاحاً بالغاً . فاعترف العتوب بتفوق مسقط والقواسم كانوا تحت مراقبته . وامتلك سلطان أراض على جانبي مضيق هرمز، ووصل إلى تفاهم مع الأوروبيين . غير أن الأوضاع تغيرت عندما ظهر السعوديون في الخليج وفي عمان . فالنشاطات السعودية أدت ليس فقط إلى التأثير على التجارة الداخلية بل إلى تشجيع كل من القواسم والعتوب للتحرر من سيطرة مسقط .

وقد أقام سلطان اتصالات مع السعوديين لأول مرة في ١٧٩٩م عندما قام أفراد "الدروع" من مؤيدي السعوديين من حدود الربع الخالي بغارات في عمان على نطاق واسع مما أدى إلى التأثير على التجارة الداخلية[29] . وكان سلطان قلقاً من هذه الغارات بصورة مباشرة بسبب نتائجها الهدامة لمصالح التجارة فتحالف سلطان مع أخيه قيس حاكم صحار لكبح "الدروع" ومن ثم حاول سلطان إخراج السعوديين من قاعدتهم في البُريمي وبالرغم من فشل هذا الغزو تفاوض سلطان مع أعدائه وتم التوصل إلى هدنة معهم .

وفي وقت كان سلطان متورطاً مع السعوديين أكد كل من القواسم والعتوب استقلالهما . فاحتل القواسم جزيرة قشم واستخدموها كقاعدة لشن هجمات ضد السفن المسقطية . ولم يعد سلطان يسيطر على مضيق هرمز وأوقف العتوب دفع رسوم المرور . حاول سلطان أن يسوي هذه المسألة في مايو عام ١٨٠١م بغزو البحرين واحتلالها لكن السعوديين تدخلوا في جانب العتوب وأخرجوا المفرزة المسقطية[30] .

أدرك سلطان بأنه لا يستطيع التعامل مع السعوديين منفرداً فذهب لمكة حيث تحالف مع الشريف غالب في يناير عام ١٨٠٣م[31] ، وأثناء غيابه في مكة، قام بدر بن سيف من آل بوسعيد، وهو شديد التوق، بمحاولة قلب النظام لكنه فشل واستعان بالسعوديين . واستجابة لهذا النداء قام السعوديون بغزو عمان في ١٨٠٣م ولما

واجهت مسقط خطر احتلال السعوديين أرسل سلطان بعثة إلى الدرعية وتوصل إلى اتفاق مما ضمن له مكانته في مسقط مقابلٍ دفع ١٢,٠٠٠ دولار ماريا تريزا سنوياً للسعوديين وتعيين سفير سعودي في مسقط[32]. واصل السعوديون عملياتهم في باطنة فيما بعد ولكن اغتيال الحاكم السعودي والاضطرابات الوراثية التي تلت هذا الاغتيال في الدرعية حررت سلطان من مخاوفه .

وعقب زوال الخطر السعودي وجه سلطان أنظاره نحو الخليج مرة ثانية ومن أولى تحركاته في هذا الاتجاه سفره إلى البصرة لجمع إعانة مالية معهودة من العثمانيين[33] ولوضع خطة مشتركة ضد السعوديين[34] لكنه لم ينجح ورجع لمسقط في نوفمبر عام ١٨٠٤م . شاء القدر أن يسقط ضحية في طريقه لمسقط بسبب القتال الذي نشب بينه وبين أساطيل القواسم والعتوب بالقرب من قشم فقتل قبل وصوله إلى مسقط .

لقد سبب موت سلطان غير المتوقع نزاعات وراثية كالعادة . فتولى بدر بن سيف زمام الحكم لمدة ثلاث سنوات . لكنه اتبع سياسة عنيفة بتحريض من الوكيل البريطاني في مسقط، وهي سياسة إخضاع سائر عمان لحكمه[35] .

وفي النهاية اغتيل على يد سعيد بن سلطان البالغ من العمر ١٧ سنة وأصبح سعيد سيد مسقط . وعلى الرغم من أنه امتلك غوادر وبندر عباس فقط دون توابعهما من الجزر وكانت هرمز قد سقطت في أيدي القواسم وبدر لا يزال حياً ، وتمتع كل من القواسم والعتوب بالتطور والتنمية لمدة سبع سنوات دون اضطراب ، إلا أن سعيد بن سلطان استمر في اعتقاده بأن مصالح مسقط لاتزال ترتبط مع الخليج وليس مع عمان[36] فبدأ بمحاولاته لإعادة مجد مسقط إلى ما كان عليه سابقاً .

اهتم سعيد أولاً باستعادة العلاقات الودية مع كل من السعوديين والفرنسيين وكان سعيد خائفاً من احتمال رد فعل سعودي لاغتيال بدر لأن بدر كان على علاقة ودية مع السعوديين . أكد سعيد من جديد التزامه بدفع ٥٠,٠٠٠ دولار ماريا تريزا سنوياً للسعوديين لإرضاء الدرعية[37] ولكن الفرنسيين كانوا غاضبين منه بسبب صداقته مع الإنجليز بل هاجم الفرنسيون بعض السفن المسقطية في المحيط الهندي . وقام سعيد

بتسوية الخلافات مع الفرنسيين في يونيو عام ١٨٠٧م حتى أنه سمح لفرنسا أن تفتح قنصلية في مسقط بالرغم من معارضة الإنجليز[38] .

وفي أعقاب تسوية الأمور بينه من جهة وبين السعوديين والفرنسيين من جهة أخرى وجه سعيد أنظاره نحو القواسم في الخليج وكانوا قد أصبحوا أقوياء في وجه غياب قوة مسقط في الخليج وكان أن تمكنوا من جمع ٦٣ سفينة كبيرة و١٩٠٠ رجل للقتال وكذلك سيطروا على مضيق هرمز بسبب احتلالهم لكل من هرمز وقشم في مضايق هرمز ولخورفكان و (ديبه) في خليج عمان . وشن سعيد هجوماً على خور فكان في مايو عام ١٨٠٨م وعلى الرغم من أنه فشل في الاستيلاء على المدينة إلا أنه وصل إلى اتفاق مع الشيخ القاسمي، سلطان بن صقر لنقل السلطة على خورفكان وديبه لمسقط .

ولم يرض السعوديون بالتفاهم الذي وصل إليه كل من سعيد والقواسم فألقى السعوديون القبض على سلطان بن صقر واعتقلوه في الدرعية وعينوا شيخاً جديداً في رأس الخيمة[39] . اتبع الشيخ القاسمي الجديد سياسة عدوانية في الخليج لكسب تأييد أفراد القبيلة الذين كانوا لا يزالون من مؤيدي سلطان وهكذا أصبح للقواسم موقف في منطقة الخليج . اضطر سعيد الذي استعاد سيطرة مسقط على شاه بهار[40] إلى معالجة أزمة القواسم مرة ثانية .

وقد طالت الحرب بين القواسم ومسقط إذ بدأت في عام ١٨٠٨ – ١٨٠٩م وتورط فيها كل من السعوديين والعتوب والبريطانيين وعدد من القوى الصغيرة في الخليج ويعكس هذا التطور أحسن تعبير لسياسة سعيد في الخليج وقد بدأت الحرب عندما شن سعيد هجوماً على رأس الخيمة وقد فشل الهجوم عندما لم يساهم فيه بعض من حلفائه مثل رحمة بن جابر والقواسم الذين كانوا من مؤيدي سلطان بن صقر . فقام القواسم بالتحالف مع السعوديين واحتلوا خورفكان وشناص . ورداً لهذا التطور تحالف سعيد مع الإنجليز وهاجم كلاهما كلاً من رأس الخيمة وشناص في عام ١٨٠٩م . وقد فشل هذا الهجوم المشترك بسبب عدم رغبة الإنجليز في قتال السعوديين مباشرة وأوقف الإنجليز القتال كلياً عندما سمعوا عن وصول التعزيزات السعودية لنجدة الموانئ التي كانت تحت الحصار .

وقد أعطى السعوديون فرصة لسعيد أن يتراجع عن موقفه عندما عرضوا عليه في آخر عام ١٨٠٩م المشاركة في الغارات على البصرة والكويت من قبل القواسم والعتوب ولكن سعيد رفض الاقتراح. هاجم السعوديون عمان في عام ١٨١٠م ولم يتصد سعيد لهجمات السعوديين في عمان بل هاجم المفرزات السعودية في كل من البحرين والزبارة ونجح لحد ما[41] وفي أواخر عام ١٨١١م عندما كان السعوديون متورطين مع المصريين في الحجاز قام سعيد بطرد المفرزتين المذكورتين وألقي القبض على الوالي في الخليج[42] وحصل على اعتراف العتوب بسيادة مسقط عليهم.

وفي أعقاب إزالة الخطر السعودي وفرض سيطرته على البحرين اهتم سعيد بمسألة القواسم. فرّ سلطان بن صقر من الدرعية ولجأ إلى مسقط حيث وضع هو وسعيد خططاً لغزو رأس الخيمة. فشلت الخطة التي نفذت في عام ١٨١٢م وواجه سعيد رد الفعل السعودي. رشا سعيد القائد السعودي الذي تجنب مسقط وتقدم نحو جنوب عمان[43]. ثم تعرضت رأس الخيمة لهجوم آخر في عام ١٨١٣م ونتيجة لذلك فرض الشيخ سلطان سيطرته على الشارقة وتأكد سعيد من القواسم والتزامهم بالهدنة وهكذا ضمِن الأمان للسفن المسقطية. ادعى لوريمر بأن سعيد لم ينو إعادة رأس الخيمة لسلطان وقد يكون هذا صحيحاً[44]. فوجود مشيختين متخاصمتين قاسميتين في كل من رأس الخيمة والشارقة كان في مصلحة سعيد بدلاً من أن تكونا موحدتين تحت زعامة شيخ واحد.

لم يستمتع سعيد بفوزه إلا قليلاً ففي عام ١٨١٥م قام القواسم بغارة ضد مطرح ورد سعيد بمحاصرة رأس الخيمة في ١٨١٦م لمدة ٤ أشهر ولكن عندما كان الأسطول المسقطي في الخليج احتل القواسم خورفكان وأوقف العتوب دفع ضريبة المرور والخراج السنوي لمسقط. فرفع سعيد الحصار عن رأس الخيمة وشن هجوماً فاشلاً ضد البحرين. واجه سعيد نكستين ورجع لمسقط فاشلاً في سياسته الخليجية فشلاً تاماً.

وكان سعيد محتاجاً للمساعدة ومن حسن الحظ، كما يبدو، بدأ الإنجليز يبدون اهتماماً بالغاً بالقرصنة في الخليج ووضعوا خططاً عسكرية لكبح القواسم. دعا الإنجليز سعيد ليشاركهم في

عملياتهم ضد القواسم ولكن سعيد لم يرض بالاقتراح الإنجليزي بسبب نية الإنجليز لتوريط محمد علي في مخططاتهم[45] . ولم يثق سعيد بالمصريين ولم يرد استبدال الخطر السعودي بالخطر المصري ومحمد علي كان أخطر من السعوديين وأقوى منهم . وعندما لم يبال محمد علي باقتراح الإنجليز شاركهم سعيد وهو مرتاح البال . فاحتل الإنجليز رأس الخيمة في ديسمبر ١٨١٩م واعترفوا بالشيخ سلطان كرئيس الشيوخ ووافق القواسم والقبائل الأخرى من الساحل على عدم ممارسة الغزو وفقاً لبنود الاتفاقية العامة لعام ١٨٢٠م[46] .

وفي أعقاب إزالة خطر القواسم وجه سعيد اهتمامه إلى البحرين . تعلق أمل سعيد بأن الإنجليز سيساعدونه في كبح العتوب بسبب دورهم النشيط في توزيع البضائع التي أخذها القواسم . شعر العتوب بموقفهم الحساس الخطير وتفاوضوا مع الإنجليز لانضمامهم إلى الاتفاقية العامة ثم وجّه الإنجليز إنذاراً لسعيد بأنهم لن يسمحوا بنشوب أعمال عدوانية في الخليج[47]. وفي هذه الأثناء كان العتوب يقومون بالمفاوضات مع سعيد في مسقط ووصلوا إلى اتفاق معه ووفقاً له اعترف العتوب بتابعيتهم لسعيد والالتزام بدفع ضريبة المرور وخراج سنوي قدره ٣٠,٠٠٠ دولار ماريا تريزا[48] . أخبر سعيد الإنجليز بأنه لا داعي لغزو البحرين كما اقترحه سابقاً .

وعلى الرغم من الوصول إلى اتفاق مع العتوب وإبرام الاتفاقية العامة لعام ١٨٢٠م وتحذير الإنجليز لسعيد من القيام بأعمال عدوانية في الخليج إلا أن هذه التطورات لم تبشر بالخير بخصوص مسقط . وكانت مسقط تستفيد من أعمال القرصنة من حيث ازدهار التجارة . لأن التجار لجأوا إلى أسطول سعيد خائفين من هجمات القواسم . وبعد القضاء على القرصنة تحررت التجارة من مخاوف القرصنة نسبياً . وفضلاً عن ذلك اعتبر الإنجليز أي قتال في مياه الخليج بمثابة قرصنة على الرغم من أن الاتفاقية العامة قامت بالتمييز بين القرصنة والحرب . وأن أية محاولة لسعيد لمعاقبة القواسم أو البحرين بواسطة العمليات البحرية ضدهم سوف تتعرض لتدخل الإنجليز[49] . ولم يكن السيد سعيد يتمتع بحرية التصرف في إتباع سياسة مستقلة في الخليج .

لقد فشلت سياسة مسقط الخليجية ليس فقط سياسياً بل اقتصادياً أيضاً . فإن الإحصائيات التي تتوفر لدينا تشير إلى الوضع المتدهور للاقتصاد في العقدين الأوليين للقرن التاسع عشر . وحسب تخمين نيبور بلغ دخل أحمد بن سعيد حوالي ٥٠,٠٠٠ دولار ماريا تريزا في عام ١٧٦٥م[50] وارتفع الدخل في عهد سلطان بن أحمد إلى ٢٠٠,٠٠٠ دولار ولكن انخفض إلى ١٠٠,٠٠٠ دولار[51] . ويجب أن ننظر إلى هذه الأرقام بنوع من التحفظ لأنها قد لا تكون صحيحة لعدة أسباب إما للنقل الخاطئ أو عدم الاستقرار في الضرائب الجمركية أو التضخم المالي أو عدة عوامل أخرى . إلا أن أحداث التدهور الاقتصادي والاستنتاج المدعم بملاحظات كننجهام يؤكد في عام ١٨٦١م بأن حجم التجارة كان أكبر بكثير في عهد سلطان بن أحمد[52] .

ودون شك أدرك سعيد بن سلطان بأن سياسته الاقتصادية تحتاج إلى تقييم جديد فنفذ في عام ١٨٢٠م برنامجاً جديداً استهدف الاحتفاظ بمركز مسقط في الخليج من جهة وتوسعة نفوذها على سواحل شرق أفريقيا من جهة ثانية . وترمز مبادرة سعيد في شرق أفريقيا إلى تغيير رئيسي في العلاقات السواحيلية المسقطية . ومن بداية سلالة اليعاربة في القرن السابع عشر، وعهد حكم البوسعيديين الأولين في كل من عمان ومسقط كانت الدول السواحيلية المتفرقة تعتبر من توابع عمان على الرغم من أن سيادة عمان كانت غير مباشرة . ومادام حكام سواحيلي يدفعون الضرائب على تصدير القرفة للهند أو الخليج أو إلى الفرنسيين في "سكارينز" فلم يكن هناك ما يدعو لتدخل العمانيين في شئونهم[53] . ولقد تغيرت الظروف بعد عام ١٨٢٠م عندما هاجم سعيد في نفس الوقت كلا من البوعلي وشرق أفريقيا ولم تكن أهدافه من هذه الهجمات تختلف عن السابق . فمن ضمن سياسته القديمة، استهدف سعيد القضاء على كافة المنافسين وفرض احتكار تجاري لصالح مسقط .

وصف لوريمر حملة البوعلي **"كحدث غريب في تاريخ عمان"**[54] ويظهر من الغريب حقيقة بأن سعيد يتورط مع قبيلة في جنوب عمان ولكن إذا نظرنا إلى هذا الحدث في ضوء

سياسته الجديدة تجاه شرق أفريقيا يختفي العجب . وكان بني بوعلي، قد قاموا إضافة إلى امتلاكهم النخيل في جعلان باحتلال ميناء الشقره الذي استخدموه كقاعدة لإزعاج مرور السفن بين مسقط وشرق أفريقيا . وشكلوا تهديداً لخطط سعيد وكان لابد من تدميرهم ولكن كانت هناك مشكلة وهي قوة بني بوعلي في البر والبحر . فاستعان سعيد بالإنجليز وأقنعهم بأن البوعلي ليسوا إلا مجموعة من القراصنة فوافق الإنجليز على مشاركة سعيد في حملته ضدهم . حاول الشريكان الاقتحام مرتين ثم هاجمت قوة مشتركة من المساقطة والإنجليز بلاد البوعلي ودمرت المدينة وقطعت النخيل وأسرت شيوخ القبيلة[55] . هكذا انتهى الخطر الذي هدد مخططات سعيد بشأن شرق أفريقيا .

وخلال ثلاث سنوات بين ١٨٢٠ و ١٨٢٣ اهتم سعيد بشئون شرق أفريقيا فقط . توقف الأسطول المسقطي في أواخر ١٨٢٠م في كل من "مركا" و "برافا" على ساحل الصومال وحصل على اعترافهما بسيادة مسقط عليهما . ثم احتل الأسطول موانئ كل من مقديشو وباتي وواسن وبمبا وتانجا[56] .

وأخيراً استعد سعيد في عام ١٨٢٣م لمواجهة عدوه الرئيسي على الساحل السواحيلي، المزارع حاكم مومباسا .

نشأ المزارع[57] أصلاً في عمان لكنهم أصبحوا سلالة حاكمة في مومباسا أثناء عهد اليعاربة ولما تولى أحمد بن سعيد البوسعيدي الحكم في عمان أعلن المزارع استقلالهم مع أنهم احتفظوا ببعض الصلات مع عمان[58] ولكن في عام ١٨١٤م تولى حاكم جديد قطع جميع العلاقات مع مسقط[59] إلا أن سعيد لزم الصمت آنذاك . أصبحت مومباسا في عهد المزارع مركزاً سواحيلياً تجارياً وأصبحت قبيلة المزارع قبيلة قوية . اكتشف سعيد نفسه ذلك عندما فشلت محاصرته "لقلعة المسيح" وهي حصن قوي للمزارع . فاستأجر بعض القراصنة المنعزلين عن القواسم ليجوبوا المياه على الساحل الأفريقي الشرقي ويهاجموا سفن المزارع في حين وضع هو خططاً لغزو المزارع مرة ثانية[60] .

توقفت صادرات سعيد من أفريقيا فجأة في فبراير عام ١٨٢٤م لما أعلن

وليام أوين، وهو قائد بحري بريطاني ويقوم بحملة ضد الاستعباد، عن حماية بريطانيا لمومباسا مقابل التزامها بعدم ممارسة تجارة الرقيق وارتاح المزارع بهذا الترتيب ارتياحاً بالغاً لأنهم كانوا يريدون مثل هذا الترتيب منذ وقت طويل[61] . قام سعيد بمحاولات دبلوماسية في بومباي للقضاء على مبادرة أوين وسحبه من مومباسا إلا أنه لم يستطع أن يعمل شيئاً ضد مومباسا وهي محمية بريطانية على الساحل السواحيلي .

وبالإضافة إلى المشاكل التي واجهها سعيد في شرق أفريقيا فقد واجه صعوبات في الخليج وكذلك في علاقاته مع الإنجليز . وقدأثارت البحرين دائماً العراقيل في تنفيذ خططه وكلما استعد سعيد لغزو العتوب تدخل الإنجليز وكذلك اضطر سعيد أن يتفاوض مع إيران من جديد حول سيادته على بندر عباس وكان أسطوله البحري يمارس الضغط على البصرة ليضمن لمسقط امتيازات تجارية فيها[62] وكان الإنجليز يمارسون الضغط عليه ليتجنب تجارة الرقيق ولم يكن سعيد راضياً بذلك لأن الساحل السواحيلي كان أكبر مصدر للرقيق[63] .

أعاد سعيد النظر في سياساته في عام ١٨٢٦م وكتب رسالة لمندوبه في بومباي أعرب فيها عن استعداده لإنهاء تجارة الرقيق إذا دافع الإنجليز عن مصالحه في الخليج بحراً وبراً أو ساعدوه بمنحه عوناً مالياً أو إعطاءه موزمبيق البرتغالية كي يغادر مسقط ويستوطن زنجبار[64] . لقد أدرك سعيد بأن ازدهار مسقط يعتمد أساساً على سيطرتها على الخليج ولما كانت هذه السيطرة مفقودة فمن الأفضل له أن ينتقل إلى شرق أفريقيا .

وفي نفس الوقت استمر سعيد في محاولاته ليوسع مصالحه في كل من الخليج وشرق أفريقيا . انسحب أوين من مومباسا نهائياً في ١٨٢٧م ودخل سعيد في مفاوضات مع المزارع آملاً أن يفرض سيطرته عليهم دون اللجوء إلى قتال لكنه لم يفلح وقاد سعيد الأسطول المسقطي شخصياً إلى مومباسا في يناير ١٨٢٨م . وكان ظهور الأسطول أمامهم قد أقنع المزارع بفائدة المفاوضات فوافقوا على إقامة مفرزة مسقطية في مومباسا وتقاسم الرسوم الجمركية للميناء على

قدم المساواة . ولكن سعيد قام بخرق الاتفاقية على الفور واحتل المدينة وفرض سيطرته الكاملة على مومباسا ثم قام بزيارة زنجبار حيث اشترى بعض الأراضي فيها وعيّن أحد أبنائه والياً عليها[65] .

وعقب فوزه على المزارع وجّه سعيد أنظاره إلى الخليج ليحتل البحرين وشن هجوماً ضد البحرين في سبتمبر ١٨٢٨م لكنه فشل وأبرم سعيد اتفاقاً مع العتوب واعترف طبقاً للاتفاق باستقلال البحرين كما التزم بمساعدة البحرين إذا تعرضت لغزو من طرف ثالث[66] . واعترف سعيد بالأمر الواقع وبأن العتوب متساوون معه .

لقد قضت هزيمة سعيد على يد العتوب نهائياً على طموحاته للسيطرة على الخليج ومن جهة أخرى حاصر المزارع المفرزة المسقطية لمدة سبعة أشهر وأجبروها على الانسحاب إلى زنجبار[67] واتضح لسعيد بأنه سوف يفقد شرق أفريقيا أيضاً إلا إذا ركز مجهوده على الساحل السواحيلي . فغادر إلى زنجبار في عام ١٨٢٩م وكرس جهوده لمدة الـ ٢٧ سنة التالية لتأسيس إمبراطورية تجارية جديدة مبنية ليست على مسقط كقاعدة لها بل على زنجبار[68] .

اتخذت مسقط مكانةً ثانويةً وبدأت تتدهور تدريجاً مثلما كان الوضع في السنوات الأولى لحكم سعيد .

دخلت مسقط مرحلة جديدة في عام ١٧٨٥م عندما تمرد حمد بن سعيد على أبيه وأسس دولة مستقلة وأثناء حكمه القصير كانت التجارة من المقومات الأساسية لسياسة حكومته . استمر سلطان بن أحمد وهو الذي خلف حمد في اتباع نفس السياسة إلا أنه حاول أن يفرض سيطرة مسقط على موانئ الخليج العربية لكي يزيد حجم التجارة إلى الحد الأعلى . لقد كان العنصر الهام في سياسة سلطان هو التجنب المطلق للتورط في الشئون العمانية إلا إذا هددت المصالح التجارية لمسقط بصورة مباشرة كالغزوات السعودية . واستمر سعيد بن سلطان في اتباع سياسة أسلافه بالنسبة للخليج وحاول أن يمد مقومات هذه السياسة إلى شرق أفريقيا أيضاً، ولكن عدة عوامل أخرى أجبرت سعيد على التركيز على شرق أفريقيا ومنها نهوض العتوب

في البحرين وقوة القواسم في رأس الخيمة وحماية بريطانيا للدول الخليجية وقد أثبتت شرق أفريقيا إمكانياتها الاقتصادية الأضخم وغادر سعيد مسقط نهائياً في ١٨٢٩م إلى زنجبار وتخلى عن فكرة إنشاء إمبراطورية تجارية تتخذ من مسقط قاعدة لها واهتم حكام مسقط فيما بعد ليس بالشئون التجارية بل بالشئون السياسية العمانية . واحتفظت مسقط باستقلالها ولكن مجموعة جديدة من المبادئ الاقتصادية والسياسية سادتها .

كالفين أيتش آلن

مدرسة أوزارك

بوينت لوك أوت - ميسوري

الهوامش

1 - The standard works on Um[*W*1]an include the introduction to G.P. Badger. History of the Imams and Seyyids of 'Umân by Salil ibn Rasik from A.D. 661-1856 (London, 1871), which is a translation of Humaid b. Muhammad b. Ruzaiq, al-Fath al-Mubin fi Strat al-Sada Al Bu Saidiyin; J. B. Kelly, Britain and the Persian Gulf 1795-1880 (Oxford, 1968); Robert G. Landen, Oman since 1856 (Princeton, 1967); J.G. Lorimer, Gazetteer of the Persian Gulf. Oman and Central Arabia, Vol. 1 (Calcutta, 1915); S.B. Miles. The Countries and Tribes of the Persian Gulf, 2d ed. (London, 1966); John Peterson. Oman in the Twentieth Century (London, 1978); and John Townsend. Oman (London, 1977). All accept the view that Um[*W*2]an was ruled by Al Bu Said with their capital at Masqat.

2 - Lorimer, I, 419.

3 - J. B. Kelly, "A Prevalence of Furies: Tribes, Politics and Religion in Oman and Trucial Oman." In Derek Hopwood, ed., The Arabian Peninsula (London, 1972), p. 108.

4 - R. D. Bathurst, "Maritime Trade and Imamate Government: Two Principal Themes in the History of Oman to 1728," In Hopwood, pp. 89-106.

5 - Sirh[*W*3]an b. Said al-Azkawi, Kashf al-Ghummah al-Jama Li-Akhb[*W*4]ar al-Umma, Abd al-Majid Hasib al-Qaisi, ed. (Beirut, 1976), pp. 155-156; Humaid b. Abd Allah al-S[*W*5]alimi, Tuhf[*W*6]at al-Aydn Bi-Strat Ahl Um[*W*7]an, 5th ed. (Kuwait, 1974), II. 176; Humaid b.

Muhammad b. Ruzaiq, al-Fath al-Mubin fi Sirat al-Sada Al Bu Saidiyin (Masqat, 1977), p. 401; Badger, p. 201.

6 - The account of Ibn Ruzaiq confuses this matter. This mid-nineteenth century Al Bu Said court historian begins by proclaiming that Hamad was Im?? am, which we know to be incorrect. He then relates accounts of Hamad's activities against Nakhl and Bahl[*W*9]a (Ibn Ruzaiq, pp. 402-408; Badger, pp. 201-207). Al-Azkawi, pp. 155-156, the earliest of the three Um[*W*10]ani sources and perhaps a contemporary of these events, says nothing of Hamad being involved at all in Um[*W*11]ani affairs. Al-S?? alimi, pp. 175-181, the late nineteenth century historian, does not mention the Nakhl campaign but attributes the Bahl[*W*13]a attack to Said b. Ahmad. Hamad's actions in Nakhl could represent a description of his role in the revolt against Said b. Ahmad in 1784, or the attack of Nakhl could be the exception that proves the rule that Hamad did not involve himself in Umani affairs.

7 - Used here to mean "Lord" or "Sir" rather than the technical meaning of descendant of the Prophet Muhammad. Ahmad b. Said adopted this title to distinguish members of the ruling family from other members of the large Al Bu Said clan, It was used by the rulers of Masqat into the twentieth century. Although in 1856 the British conferred the title sultan upon them.

8 - For a contemporary description of the economic situation in the Arabian Gulf see Samuel Manesty and Hartford Jones, ''Report on the Commerce of Arabia and Persia by Samuel Manesty and Hartford Jones, 1790,'' Bussora, 15th August 1790.

9 - Ibid.

10 - Carsten Niebuhr, Travels Through Arabia and other Countries in the East (Edinburgh, 1792), 11, 116.

11 - On the development of Indian commercial interests in Masqat, see Calvin H. Allen, Jr., ''The Indian Merchant Community of Masqat,'' Bulletin of the School of Oriental and African Studies, XLIV, I (1981), 39-53.

12 - Manesty and Jones discuss the rise of these groups In their report. See also Ahmad Mustafa Abu Hakima, History of Eastern Arabia, 1795-1800 (Beirut,1965).

13 - Miles, p. 284.

14 - Al-Azkawi, p. 156; Ibn Ruzaiq, p. 403; Badger, p. 204.

15 - Manesty and Jones, passim.

16 - See Ibn Ruzaiq, pp. 409-412; Badger, pp. 210-213.

17 - The details of this civil war are contained in Al-Azkawi, pp. 156-157. The Arabic sources do not mention the Pact of Birkah. The source for this is Miles, p. 286 and Lorimer, I, 421.

18 - R. H. Thomas, Selections from the Records of the Bombay Government, Historical and Other Information, Connected with Province of Oman, Musqat, and other Places in the Persian Gulf, n. s., XXIV (Bombay, 1856), pp. 57-58.

19 - Kelly (1968), p. 107.

20 - Miles, p. 287; Lorimer, I, 421.

21 - James B. Fraser, Narrative of a Journey into Khorasan in the Years 1821 and 1822, London, 1825, p. 13. Fraser stated that a duty of .05 percent was imposed on all ships. Bathurst (p. 100) also discusses this license, which probably began with the Portuguese.

22 - There are various explanations of piracy in the Gulf. Kelly (1968 [pp. 99-138]) takes a traditional view in attributing it to the excesses of the Wahhabi movement. Landen (p. 8) is closer to the mark when he typifies piracy as the struggle between the

''haves'' (Masqat and India) and the ''have nots'' (the Qawasim). My favorite description of piracy, however, comes from the former ruler of Masqat, Said b. Taimur, who stated, ''The epithet pirate tended a century and a half ago to be indiscriminately applied to Christian and Muslim seafarers alike to disparage successful and competitive non-coreligionists'' (H. F. Eilts, ''Sayyed Muhammad b. Aqil : Malevolent or Maligned?'' Essex Institute Historical Collections, 109, 3 [1973]. P. 181).

23 - J. A. Saldanha, Precis of the correspondence Regarding the Affairs of the Persian Gulf, 1801-35 (Calcutta, 1906), pp. 30-32.

24 - Thomas, p. 124.

25 - Miles, p. 292.

26 - Thomas, p. 173.

27 - Text in C. V. Aitchison, A Collection of Treaties, Engagements, and Sanads Relating to India and Neighboring Countries (Calcutta, 1933), XI, 287-288.

28 - Saldanha, p. 25.

29 - Ibn Ruzaiq, pp. 430-431; Badger, p. 229.

30 - Uthman b. Abd Allah b. Bishr, Unwan al-Majd fi Tarikh Najd (Riyad, 1976), I, 161. There is some confusion over the chronology of events in this campaign as per Kelly (1968), p. 104, n. I. Ibn Bishr's account makes it clear that the major action occurred in 1801-02.

31 - Ibn Ruzaiq, p. 433; Badger, p. 232. Ibn Ruzaiq's date of A.H. 1218 is one year too late as the Saudis had occupied Mecca by then.

32 - Miles, p. 298.

33 - Ibn Ruzaiq, p. 438; Badger, p. 238. The subsidy was paid in appreciation for assistance Ahmad b. Said had extended to the Ottomans during a Persian attack on Basrah.

34 - Munir al-Ajlani, Tarikh al-Arabiyat al-Saudiyah : al-Dawlat al-Saudiyat al-Ula (Beirut, n.d.), IV, 74-75.

35 - Al-Ssalimi, p. 193; Ibn Ruzaiq, pp. 470, 474-475; Badger, pp. 269, 274-275, Saldanha, p. 38.

36 - A letter from Said to Badr quoted in Ibn Ruzaiq, p. 488, Badger, pp. 289-290, seems to express Said's concern for Badr's preoccupation with the interior of Uman to the detriment of Masqati interests.

37 - Al-Ajlani, p. 75.

38 - Saldanha, pp. 11-12.

39 - Ibn Ruzaiq, pp. 517-518; Badger, p. 321.

40 - Lorimer, I, 183.

41 - Kelly, 1968, p. 126.

42 - Ibn Bishr, I, 205.

43 - Ibn Ruzaiq, p. 521; Badger, p. 325.

44 - Lorimer, I, 446.

45 - Ibid., p. 197. The British apparently intended to turn control of Ras al-Khaimah over to Muhammad Ali.

46 - Text in Aitchison, XI, 245-249.

47 - Kelly (1968), p. 165.

48 - Fraser, p. 15.

49 - I have discussed the implications of British involvement in the Gulf in my ''The Disruptive Influence of Great Britain's Trucial Policy,'' Journal of Arabian Peninsula and Gulf Studies (Kuwait), 3, 11 (1977), 67-84.

50 - Niebuhr, p. 116. The figure given is Rs 100.000 with the rupee equal to 5 M T dollar.

51 - Lorimer, I, 469.

52 - J. S. Buckingham, Travels in Assyria, Media and Persia, 2d ed. (London, 1830), 11, 400.

53 - The standard works on this period in East African trade and politics are Reginald Coupland, East Africa and Its Invaders (Oxford, 1938), and C. S. Nicholls, The Swahili Coast (London, 1971).

54 - Lorimer, I, 463.

55 - There is a large body of literature on the Bani Bu Ali expedition with all major works listed above discussing the campaign.

56 - ''The History of Pate,'' in G. S. P. Freeman-Grenville, ed., The East African Coast : Select Documents, 2d ed. (London, 1975), pp. 281-284; Nichollas, 133.

57 - On the Mazari see Salim b. Hamud al-Siyabi, Isaaf al-Ayyan fi Ansab Ahl Uman (Beirut, 1965), pp. 79-81.

58 - ''Anonymous: History of Mombasa c. 1824,'' in Freeman-Grenville, p. 217.

59 - John Gray, The British in Mombasa: 1824-1826 (London, 1957), p. 33.

60 - Ibid, p. 34.

61 - Nicholls, pp. 139-140.

62 - Lorimer, I, 449-450, 1320. 1913-1915.

63 - The slave trade in Masqat during the reign of Said b. Sultan is described in William Huede. A Voyage Up the Persian Gulf and a Journey Overland from India to England in 1817 (London,

1819), pp. 24 - 25, and J.R. Wellsted. Travels in Arabia (London, 1838), I. 387 - 391.

64 - Kelly (1968). Pp. 427 - 429; Nicholls, p. 226.

65 - Gray, p. 177.

66 - Lorimer, I. 852 - 856.

67 - "Log of the Brig Virginia. 1828 - 29." In Norman R. Bennett and George E. Brooks. Jr., New England Merchants in Africa : A History through Documents 1802 to 1863 (Boston, 1965), pp. 153 - 154; Nicholls. P. 306.

68 - See Frederick Cooper, Plantation Slavery on the East of Africa (London and New Haven), 1977 for the development of Said's African empire.